سير الزمان

مقدمة لتاريخ الحرب العالمية الثانية

١ — فترة التفاؤل والتقدم

٢ — ثورة المرصدار

٣ — النظام النازي وأساسه

٤ — مقدمات ونتائج

ا — معاهدة فرساي

ب — هبوط العقوبات

ج — الروح الدمقراطي

مقدمة لتاريخ الحرب

العالمية الثانية

١ — فترة التأمل والتفرس

يتصف ربع القرن المنقضي بين سنة ١٩١٤ و١٩٣٩ بصفة المأساة في أدب اليونان الاقدمين. فقد شُيِّد فوق أنقاض الحرب العالمية الماضية قصر تسمره آمال جديدة معقدها توطيد السلام الدائم وترسيخ الاصول الديمقراطية ونشر العدل الاجتماعي. وجاءت فترة من الزمان لاح فيها ان بعض الأمم سائر الى تحقيق هذه الآمال. ولكنها آمال انهارت معفرة بالتراب عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، وهي حرب لا يعلم احد مداها ولا عواقبها.

وعلى الرغم مما بدا في معاهدة ڤرساي من مواطن الضعف، فليس ثمة ريب في ان واضعيها حاولوا ان يجعلوها اساساً لنظام دولي جديد. وقد شهد العالم في السنين الخمس عشرة التي انقضت على وضعها مساعي صادقة بذلت لانشاء منشآت دولية تقرب التعارف وتمنع الحرب في المستقبل. فجامعة الأمم، ومكتب العمل الدولي ومحكمة العدل الدولية أنشئت جميعاً في هذه الفترة. وجاءت ايام عقدوها مثلو العالم — اذا استثنينا الولايات المتحدة الاميركية وروسيا في العهد الاول — اجتماعات دورية في جنيف، وبدا لمتتبعي شؤون العالم، لمحة من الزمان، ان الجامعة قد أنشأت مجتمعاً دولياً حقاً، وفازت هيئة في منع العالم من الانقسام معسكرين متعاديين. ومع ان الولايات المتحدة الاميركية تنكرت للرئيس ولسن إلا انها حاولت ان تسدي ما تستطيعه من ناحيتها في مؤتمر وشنطن (١٩٢١) ثم في ميثاق باريس (١٩٢٨). وكان هناك فريق من الناس يرى انه من الخطر استئصال البغضاء القومية من النفوس والقضاء على الحرب، فاخطروا امام ما تم ان يخلوا الطريق للمتفائلين بان في الوسع تحريم الحرب. وليس هناك شك في ان العالم أخذ بفكرة مناوءة الحرب وتحريمها، إذ شعرت جميع الشعوب بسخطها ومقتها للمجازر المنظمة وأعمال التدمير الواسعة النطاق حتى في ايطاليا الفاشية والمانيا النازية، لم يصعد الحاكمون بامرهم على اكتاف الناس الى مقاعد الحكام الا لانهم احرزوا انتصارات قومية لم يريقوا فيها دماً ولم يزجُّوا في سبيلها بأممهم في نيران الحروب. ومن المحتمل ان العالم لم يشهد في فترة سابقة من تاريخه نزعة السلام وهي أنبل وأعزُّ مما كانت في خلال العشرين السنة الماضية. فالناس اقلُّ تحمساً للحرب العالمية الثانية منهم لأية حرب سابقة

وقد صحب السعيَ الى منع الحرب وتحريمها ارتقاء عظيم شمل اوربا والولايات المتحدة الاميركية في نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فرمم الناس ما دمّر وخرّب في الحرب الماضية ووسعوا نطاق الانتاج ومدوا في اسباب المواصلات والمخاطبات بالاذاعة اللاسلكية والتلفون اللاسلكي البعيد المدى والطائرات حتى انكمشت اقطار الارض ومضوا في ترقية العلوم والفنون الصناعية وردّ حدود المجهول حتى غدا بعض الفلاسفة يتنبأون بأن الآلات سوف تقضي على الضجر الناشىء من العمل باليد

في خلال هذه الفترة زاد دخل العمال والطبقات المتوسطة في بعض البلدان. وأمست الجماهير تتمتع فعلاً بمستوى من المعيشة كان أمنية ترنو اليها انظار اجدادهم. وجنى العمال في المدن منعة خاصة من الصور المتحركة والاذاعة اللاسلكية والسيارة. ومع ان الفلاحين لم يشاركوا عمال المدن في كثير من هذه المتع إلاّ ان حظهم تحسّن كثيراً بما اقرته الحكومات من برامج الاصلاح الزراعي وحماية الزراع. ولو تبع ان ما بدا من عناية بعض الحكومات بالفلاح — ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد الدولي — كان من الميزات التي اتصفت بها هذه الفترة من تاريخ العالم الحديث

وجاءت الأزمة الاقتصادية العالمية في سنة ١٩٢٩ وتلاها استفحال امر الحاكمين بأمرهم فصدّم المفاتلون بمستقبل البشر في السنوات التي تلت عقد الصلح اشد صدمة في آمالهم وأحلامهم. تخيم على العالم جو تملؤه المخاوف لاخفاق الدول الديمقراطية في حل مشكلة التعطل عن العمل وحبوط مسعاها للاتفاق مع الدول الدكتاتورية. ومع ذلك ظل ملايين من الناس مقتنعين بأن هذه المشكلات لا يحتمل ان تفضي الى حرب تشمل اوربا بلايلها ورزايا حتى كان اليوم الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ اذاعان المستر تشمبرلن «قيام حالة حرب». قال في مجلس النواب «كل ما عملت في سبيله وبنيت عليه رجائي وآمنت به في أثناء اشتغالي بالشؤون العامة قد انهار انقاضاً»

***

اما اليوم فاننا نرى الآمال التي كانت تعمر صدور الناس في خلال العقدين الماضيين مضطربة مشوشة. لم يبقَ من جامعة الامم الاّ قصرها الفخم على ساحل بحيرة لمان وكأنه مقبرة آمال عظام. وميثاق تحريم الحرب الذي حرك انبل الشعور في بعض الامم ولا سيما الولايات المتحدة الاميركية وأثار فيها حماسة تكاد تكون دينية، لا يعدو كونه اضحوكة. اما السير في سبيل الارتقاء الاجتماعي فلا بد من الانحراف عنهُ في الدول المحاربة، واحد منهُ في الدول المحايدة. ومع ان دولاً كثيرة لا تزال متمسكة بحيادها فلا بدَّ من القول أن خطر اشتعال الحرب في

جميع انحاء العالم ابداً جاثم على الصدور كالكابوس . ومعظم البراعة الفنية والصناعية في كثير من الامم متجهة الآن الى كشف اساليب جديدة للتدمير . وعلى كل دولة محاربة ان تتوقع خسائر كبيرة في الارواح وارهاباً لجمهور الشعب الآمن وانخفاضاً في مستوى المعيشة . وجاء روح من الزمن ذهب الظن فيه الى ان اتصال الشعوب بعضها ببعض قد ينشىء روحاً عالميًّا جديداً ولكن ذلك قد اخذ يخلي الطريق لاستحكام الحقد والبغضاء لمغذيها وتثيرها الدعاية المغرضة

وقد يكون من التسليم الذي لا سوّغ له ان نقول ان الحرب العالمية الثانية ستدمر الحضارة . ولكن لا ريب في أن شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ كان مسهلٌ عهدٍ جديد في التاريخ، صفتهُ البارزة تفاقم البؤس الانساني ، واستفحال التحوّل الاجتماعي استفحالاً لا يعلم أحداً الى أين ينتهي

فكيف نفسّر هذا اللغز الغريب ؟ ان الانسان الذي كاد أن يحقق في ربع القرن الماضي أعلى آماله ارتجّ الآن في نضال مدمّر لا يقبل عليه افراد اي فرع من فروع مملكة الحيوان. وكيف نفهم سرّ هذا المخلوق الذي يرتفع في بعض أدوار التاريخ حتى يقف عند أقدام الآلهة ثم نراهُ وقد انساق الى كارثة يعرف لها أول ولا يعرف لها آخر ؟

٢ — ثورة المرصاد

كان التقدم الذي تمّ في العقد الثالث من هذا القرن أقرب الى الوهم منهُ الى الحقيقة لانهُ كان محصوراً في طائفة يسيرة من الأمم. فالتضخم المالي الذي اكتسح في المانيا ودول اوربا الوسطى الناشىء عن الحرب الماضية وعواقبها، محا الطبقة المتوسطة من سفر الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وقامت في طائفة من البلدان مشكلة مزمنة أساسها التعطل عن العمل وانتشار الفاقة ، وكان الناس يصيحون طالبين الحرية ، فلما لم يجدوا فيها ما يشبع حاجاتهم المادية الملحة طلبوا السلامة وضمان الحياة . وليس ثمة ريب في أن احد البواعث الاساسية على ما في العالم من اضطراب انما هو سعي الجماهير الى ضمان حياتهم ورفعتهم في مستوى أعلى من العيش

وقد كانت الاول الديمقراطية في غرب أوربا والولايات المتحدة الاميركية قادرة على ملكهُ من موارد على مواجهة هذه المشكلة الاجتماعية من دون ان تقضي على نظام الملك الخاص ومبدإ الحرية . ولكن البلدان الأخرى التي لم تملك من الموارد ما يمكنها من تلبية طلب الجمهور للسلامة والحرية ، سرعان ما وجهت ضد نظام الحياة القائمة فاتجهت نحو الدكتاتورية . ففي روسيا السوفيتية والمانيا النازية وايطاليا الفاشية فاز الناس بأعم ما يزاولونها . قد يكونون واهمين في اعتقادهم أنهم أحرزوا السلام الذي يطلبونهُ، ولكن جذور النظم الاجتماعية القديمة كادت تقتلع من الأعوار في خلال هذا التحول الذي طرأ عليها هذا سخر الناس من مبادىء الحرية التي تسود غرب

اوربا ، فانقلب الفرد جزءاً من آلة ، فاذا لم يلائم بين نفسه وبين حالته الجديدة ، وظل مصراً على انهُ فرد له رأيٌ خاص نالهُ الارهاب ، فما ان يقبل الحالة الجديدة ، أما ان يزول

كانت الحكومات الدمقراطية والحكومات الدكتاتورية في الماضي تستطيع ان تعيش جنباً الى جنب ، ولكن الدول الدكتاتورية غدت دولاً تضرب بعمول الثورة صرح الحضارة القائمة وأساسها عداء مستحكم للدمقراطية والرأسمالية . فالحزب الشيوعي المعروف بالدولي الثالث اشجع الاحزاب الشيوعية في كل دولة ، واذا طبق هذا الحزب مبادئهُ فلا ريب في انهُ سيمحو الطبقتين العليا والمتوسطة في شرق بولندة ويقضي على الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية فيه . وتأثير الدكتاتوريتين النازية والفاشية ليس بأضيق مدى من تأثير الشيوعية ، فايطاليا والمانيا أمدتا الجنرال فرانكو بالعون ليقيم في اسبانيا نظاماً من الحكم والاجتماع على نمط نظامهما . والحزب النازي يطالب حكومتهُ بفرض نظام الحزب الواحد المعادي لليهود على بوهيميا وموراڤيا . وما كادت تشبُّ هذه الحرب حتى اغتال الحرس الحديدي المسيو كالينسكو رئيس وزارة رومانيا (٢١ سبتمبر ١٩٣٩) والحرس جمعية رومانية سرية تأخذ بمبادىء النازية ويقال انها تتلقى المدد المالي من المانيا . فالدول الدكتاتورية لا تثير حرباً عدوانية فقط بل وتسعى الى اصدار مبادىء ثورة جديدة من بلادها الى بلدان أخرى

واذا كانت ايطاليا متأثرة بفكرة احياء المجد الروماني القديم ، فان روسيا والمانيا تسعيان الى الفوز بتأييد الجماهير المتبرمة الساخطة في جميع البلدان فتطلب اليهم ان يقدموا على مذبح العقيدة النازية او الشيوعية قربان ولائهم القديم

شهدت أوربا الغربية ثورتين عظيمتين في الماضي ، ثورة البيوريتان سنة ١٦٤٢ والثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، ليس من ريب في ان كرومويل في الاولى وروبسبير في الثانية تطرقا في بعض ما فعلا ، ان الثورتين اعقبتا آلاماً وبؤساً كثيراً . ولكن عند ما انهار النظام الذي اقامتهُ كلٌّ من الثورتين ترك وراءه أثراً من المبادىء التي تبنَّتها الثورتان في سبيلها . اما الآن فمن المتعذر على الباحث ان يقتنع بان النظم الدكتاتورية القائمة الآن ستترك وراءها أثراً نافعاً . وذلك لأنها لا تقوم على مبدأ أدبي ، وتضحي بالشخصية في سبيل الكتلة المشتركة . وهي تهدم الفوارق بين الطبقات لتقيم فوارق جديدة لا تجعل الطبقات الجديدة اقدر على حمل عبء الارتقاء الاجتماعي السليم المتزن من الطبقات القديمة . ثم انها تحكم بتحريك الشعور واثارة الغريزة لا بالاستناد الى القانون ولا القاضي . قد ينجح في كل هذا ان تتعلم الدول الدمقراطية الحق الصحيح للمشكلة الاجتماعية ، ولكن الثمن الذي تدفعهُ في سبيل العلم كبيرٌ وقد يكون مرهقاً

اما السبب الآخر من اسباب هذه الحرب ، فهو انبعاث الخصومات القومية القديمة . فقد

انقضت عصور كانت فيها السيطرة لبضع دول كبيرة ، لكل منها سيادة لا تكاد تحد ، وكل منها تسعى الى ضمان مصالحها وتوسيع نطاقها ولو كان ذلك على حساب الدول الاخرى. والباحث في تاريخ العصور الماضية يلحظ فيها دورة ، ينتقل فيها لواء السيادة من دولة كبيرة الى اخرى. كانت اسبانيا وهولندة والسويد والنمسا وبولندة دول اوربا الكبرى قبل الثورة الفرنسية في ازمان متفاوتة. أما الدول الثلاث الاولى فقد ضعف شأنها الآن واما الدولتان الاخيرتان فقد زالتا الى حين . فما خبت نار الثورة الفرنسية حتى كانت السيطرة قد انتقلت الى بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وها هي ذي المانيا تنازعهما السيادة وتؤيدها في ذلك روسيا السوفياتية واليابان وايطاليا

ولا ريب في ان بريطانيا وفرنسا تضيان بمصالحهما ، ولكنهما كذلك بلدا الرأسمالية والديمقراطية والحرية. حالة ان المانيا النازية تمثل نزعة التوسع الدكتاتوري . وهناك فريق من الالمان يعتقدون ان يوم بريطانيا جاء عليه الدهر ، وان منشآتها عتيقة وجامدة لا تصلح لمواجهة الاحوال الجديدة وان نفوذها العالمي لا بد منتقل الى المانيا. فاذا صحت هذه الآراء (وقد سبقها نبوءات من قبيل في سنة ١٧٨٣ عندما خسرت بريطانيا مستعمراتها الاميركية وفي سنة ١٩١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الماضية ولكنها لم تصح) فمبادىء الحكم الديمقراطي التي عززتها بريطانيا وفرنسا ونشرتها في القرن الماضي لا بد ان تنهار وتحل محلها مبادىء النازي وهي ما تزال قائمة على قاعدة الزعامة والخضوع لها. وألمانيا النازية ماضية في سياستها متسمة بسمة النزعة القومية المتطرفة . وقد وصف هتلر المسألة التي يدور عليها النضال عندما قال للسفير البريطاني يوم ٢٤ اغسطس ان انكلترا تحارب في سبيل «العناصر الصغيرة» وأما هو فيحارب في سبيل المانيا

وما يضطرم في صدر المانيا النازية وروسيا السوفيتية من البغضاء لبريطانيا لا يرتد الى الحسد من امبراطوريتها المتسعة وثروتها العظيمة فقط بل والى نظامها الاجتماعي فانها هي الدولة الوحيدة في العالم التي تحكمها طبقة من المحافظين تستطيع ان تفوز بتأييد عامة الشعب . وقد تمكنت هذه الطبقة الحاكمة من الفوز بذلك بترسيخها في طبقات الشعب فكرة الوحدة القومية المقترنة بالديمقراطية الحرية . ومن المحتمل ان هذه الحرية كانت في بعض العهود وهما يتشاء الرياء ، مع ذلك كتب بجانة المانى يدعى الأستاذ دبيلوس [illegible] ما تقلد هتلر ازمة الحكم في المانيا ما يلي : «لقد كانت انكلترا هي البلد الوحيد في العالم الذي عجد من رعاية مصالحه من ناحية وقدرته على تنبيه شيء قليل للدول الاخرى . هي البلد الوحيد في العالم الذي لا تمثل فيه الوطنية تهديداً للسلم العالمي ولذلك تأخذ حولها جميع العناصر نزعة الى الكمال الرائعة

في التقدم في سائر لاعم لتعاون معها » فنجاح انكلترا في الماضي يجعلها هدفاً للدول الدكتاتورية

فالحرب العالمية الثانية الماشية الآن ليست مجرد قضاء امبراطوري على المواد الخام . انما هي ثورة شبت بينها دون « الجماهير » بغية توزيع الثروة توزيعاً جديداً . فهي في الداخل تقلب الأوضاع الاجتماعية ؛ وفي الخارج تسعى الى هدم منزلة الدول الغربية المتفوقة . فالمسألة التي يدور النزاع من حولها ليست مكانة الطبقات الحاكمة في بريطانيا ولكن النظم الاقتصادية والسياسية والثقافية القائمة على مبدإ الحرية التي تؤيدها هذه الدول الغربية . وعلى ما بين الدول الدكتاتورية من فروق فهناك وجه شبه أساسي بينها جميعاً وهو الاعتبارات القومية التي تسترشد بها وليس هناك ريب في انهُ اذا فازت المانيا أو روسيا أو الاثنتان مشتركتين في هذا الحرب فان المبادىء التي تقوم عليها الحضارة الغربية ستتراجع ان لم تصب بالانهيار

٣ — النظام النازي وأساسه

فيقف النظام النازي في المانيا — وهو أعظم الأنظمة الدكتاتورية مكانة وسطوة — كما يظن من ساعدة فرساي والأزمة الاقتصادية العالمية . ان جذوره ممتدة الى الماضي البعيد . مستمدة غذاءها من النضال الاجتماعي في العصر الحديث . والمانيا تلي روسيا السوفياتية في أوربا من حيث عدد السكان . والشعب الالماني شعب موهوب ولكنهُ أصيب ، بالنظر الى وضعه الجغرافي وتطوره التاريخي ، بالقمع والكبت مرة بعد أخرى . ولو لم يشعل الالمان بتأييد الامبراطورية الرومانية المقدسة الناشئة من فكرة الوحدة المسيحية في القرون الوسطى لما بددت المانيا قواها في سعيها الحثيث الى اخضاع ايطاليا . ثم ان الرابطة الامبراطورية كانت ضعيفة فيها ، فقامت فيها مئات من الامارات الكبيرة والصغيرة المستقلة . فلما جاء عهد الاصلاح الديني وبدت فيها وجوه الخلاف المذهبية عُمِّرَت هذه الفواصل بين اجزاء المانيا باقحام العنصر الديني في مشكلاتها ، فغدت المانيا ساحة معارك أوربا في خلال حرب « الثلاثين سنة » . والتفت فرنسا الى موقعها بين امبراطوريتي هبسبرج شرقها وجنوبها فاغتنمت كل فرصة لاضعاف المانيا ضعيفة مفككة الاوصال . فالوحدة الالمانية لم تتم الا في سنة ١٨٧١ اي بعد انقضاء ستة قرون على قيام الملكية القومية في كلٍّ من بريطانيا وفرنسا .

قد يسهل على الباحث أن يبالغ في وصف تأثير الوضع الجغرافي والوصف الطبوغرافي في سير التاريخ . ولكن لا ريب في أن حدود المانيا المفتوحة في الشرق كانت أهم باعث على التوسع في الشرق وفي انشاء صفات معينة في الخلق الالماني . وقد سعى الالمان قروناً الى بسط سيطرتهم على الصعيد الصقلية وفي الوقت نفسه تمكن المستعمرون الالمان — وهم يحاربون —

من الشاء مراكز للصناعة في مدن متفرقة في أوربا الوسطى على اساس امتيازات منحوها من امرائها . وعندما كانت أوربا ماضية في غزوتها العالم الجديد وتوسعها فيه كان التوسع الالماني محصوراً في أوربا الصقلية وهو التوسع الذي انتهى الى اقتسام بولندة ثلاث مرات في القرن الثامن عشر . وقد كانت سياسة المانيا في خلال هذه المدة من وضع الاسرتين الحاكمتين في المانيا والنمسا أي آل هوهنزولرن وآل هبسبرج تؤيدهما ارستقراطية اقطاعية بالجنود والحكام . فولّد هذا التضال في الطبقة الحاكمة الالمانية شعوراً بالتفوق على سائر الناس وهو شعور كانت تشاركها فيه الطبقة الحاكمة في انكلترا

ومع ذلك ظلّ فريق من كتّاب المانيا ومفكريها يذهب — قبل الثورة الفرنسية وبعدها — الى ان فكرة الوحدة المسيحية اساسية في اوربا فدعا جوته وشيلر وهردر ونوفاليس الى اخضاع الفروق القومية لفكرة الوحدة الاوربية

ولكن دعوة من هذا القبيل ، في عالم تتنازعهُ عوامل « سياسة القوة » كانت لا بدَّ ان تفضي الى اضعاف القومية الالمانية . فشرعت المانيا في اثناء غزوة نبوليون لها تقتبس من الغرب صور الحياة القومية الوطنية فكأنها اخذت سلاح العدو وأثقفت صنعهُ وصقلهُ لتغلبهُ به

وفي سنة ١٨٠٧ — ١٨٠٨ عند ما كانت جيوش نبوليون محتلّة برلين ، كان الفيلسوف فيخت يلقي محاضراته المشهورة التي جمعت في كتاب بعد نشر عنوانهُ « خطابات الى الامة الالمانية » قال ما مؤداه : ان الالمان مفردون في لغتهم وتقاليدهم وثقافتهم فيجب عليهم الاَّ يسمحوا بان يلوّثوا بغيرهم وليس بينهم وبين سائر الشعوب شيء مشترك واذن فيجب فرض الثقافة الالمانية على العالم . ثم جاء فاخبر ونبّشه فنزرا هذه النزعة عزَّزها الاول بوسيفاء والثاني بقوله ان الحضارة الغربية اخذت تنحطُّ وان الحضارة لا تسير في سبيل الارتقاء الاَّ اذا قامت ارستقراطية فاتحة من الرجال المتفوقين (سوبرمان) تسيطر على الشعوب المنحطة . هذه الافكار التي تغلغلت في نفس الشعب الالماني دفعت بهِ الى خوض غمار الحرب العالمية الماضية

وجاءت فترة بعد الحرب ، في اثناء عهد جمهورية فيمار ، بدا فيها المتتبعي الحياة الالمانية ان فكرة الوحدة الاوربية التي قال بها جوته وشيلر قد تبعث من الماضي البعيد وهي اعزُّ ما كانت . ولكن الهزيمة في الحرب الماضية ، والمصاعب الناشئة عن الحصر البحري في اثنائها بعدها ، وطبيعة معاهدة فرساي ، والتضخم النقدي في سنة ١٩٢٣ ، مضافاً الى ما عانتهُ الجمهورية من المشكلات الداخلية الاخرى — كلُّ ذلك بثَّ في نفوس الشعب الالماني شعوراً باليأس . القنوط حملهُ الى الالتفات الى زعمائه الحاليين . ولو لم يكن من خلق الالمان حب الانقياد لزعيم لاستطاعوا أن يتناسوا ما أغرمهم في برنامج الحزب النازي من دعوة الى العنف اكثر مما قاوموا .

ولكن كلّ دولة تسير على احتمالات النظام الفاشي في ثناياها . حتى اميركا قام فيها «هيوي لونغ». وكل دولة تبالغ في حياتها القومية حدود القنوط تستسلم للطاغية المشهوي الجماهير . إلا ان هذا لا يرفع عن كاهل الأمة الالمانية تبعة اعمالها في عهد النازي ولا يوجب على العالم الاستسلام لخطة العدوان . ولكنهُ يشعر بي بعضهُ اذا كتب النصر لفرنسا وبريطانيا فعليهما ان يعززا في المانيا منزلة الجماعة التي ترتدُّ في فكرها الى جوته وشيلر دون فيخت ونيتشه وذلك بانشاء نظام عالمي جديد

ونحن اذا نظرنا الى مبادىء الوطنية الاشتراكية رأيناها تلك الوطنية الالمانية المتطرفة التي سبقت الحرب العالمية الماضية ولكن بعد ان مضت في التطرف والانحراف الى أبعد حدودها . فهتلر يشتدُّ في الدعوى الى الاعتبارات العنصرية اكثر مما اشتدَّ في الدعوة اليها أحد من أسلافه في حكم المانيا . ولكن الاعتبارات العنصرية ذاتها ليست الاَّ أسلوباً من الاساليب ليأن تذوّق الشعب (قول الالماني الفني وجه فيخت نظره اليه . وقد بدَّل هتلر بعض مناهج في «كفاحي» منذ تقلد زمام الحكم في سنة ١٩٣٣ ولكنهُ لم ينحرف مطلقاً عن اعتقاده في ان « الشعب الالماني » انما هو شعب خاصٌّ وان الفرد يجب ان يندمج في الشعب ويفنى فيه . فلما أذاعت الدول الديمقراطية في ما تعلنت فيه عند ما كان الحكم في المانيا جمهوريًّا ، اقنع هتلر بأن لنزعة الجرمانية رسالة تؤديها ، هي السيطرة على اوربا ان لم تكن السيطرة على العالم

والنظام النازي العام يؤمن بأن الدولة او الشعب ويصرُّ رجاله على ان الله — جلَّ جلاله — يتكلم بواسطة الدولة او « الشعب » . « الأخاء الجرماني» هما طريق الخلاص ، وما يشعرون به من الشعور الافتان بأثر هذه العقائد ليس روحيًّا وانما هو ذهول وافتتان جسمانيان منفذهما في العمل ، فليس فيها مكان للتعقل او للتسامح او للتواضع . الدولة تملي على كل فرد عمله والفوهرر لا يخطىء . وفي هذا وحده تسويغ لكل عمل . ومن اقوال الدكتور لاي رئيس جبهة العمل « يرى في المانيا فرد الجميع جود اذولف هتلر » أما موقف النازي تجاه الشعوب الأخرى فيستدل عليه عند ظهور عدينًا في احدى المجلات الجرمانية [illegible] وصف فيها البولنديون بلفظي « بولاك » و«بجاين» مثل قبائل الزنوج !

بهذا التفكير المتحفظ والغرائز المنشور بأساليب جديدة فعالة منقّحة من الدعاية أنبعثت الحركة النازية في نفس الشعب الالماني شعوراً جديداً . ففي هتلر ، في نجاح او فشل في الداخل على الصعيد العالمي في المانيا ثم احرز في الخارج انتصارات كبيرة

ان هتلر ليس موسوليني ثقافة ، ولكنه متصف بصفات غريزية يندر اجتماعها في رجال السياسة فاستطاع بها ان يخرج المانيا من عزلتها . فقد تحرر مثلاً على قلب سياسة المانيا تجاه بولندة رأساً على عقب في سنة ١٩٣٤ اتفاقاً مع بلسودسكي تعهد بمقتضاه بأن يتنع عن

خوض حرب مع بولندة مدى عشر سنوات . واغتبط البولنديون باهتمام هتلر بهم والاتفاق معهم فظنوا انهم استطاعوا أن يحولوا العدوان الهتلري عن شرق أوربا الى اقطار أوربية أخرى . ولكنهم في الواقع جزت عليهم مناورة هتلر لأنه بعمله هذا عزلهم عن حليفتهم فرنسا . فلما غزا موسوليني الحبشة اعتمد هتلر على غضب موسوليني من فرض العقوبات على ايطاليا فتكلف اوصاف «جبهة ستريزا» التي كانت قد انشئت لمقاومة عدوان المانيا الهادي اولاً في نقضها المعاهدات ثم توّج ذلك كلّهُ بانشاء الميثاق المقاوم للكومنترن فكان لذلك الميثاق تأثير عظيم في محافل بريطانيا وفرنسا السياسية لأنهُ بثّ فيها خشية بطش ايطاليا في البحر المتوسط واليابان في الشرق الاقصى اذا هما خاضت حرباً مع المانيا

وفي خلال هذه الفترة حاول هتلر أن يستغلّ شعور الاحرار في البلدان الديمقراطية باصراره على أن كل غرضه من سياسته انما هو اصلاح الخطإ وود الجور الواقع على المانيا من معاهدة فرساي . واستغلّ في الوقت نفسه شعور المحافظين بقوله أنهُ صدّ الشيوعية عن الانتشار في المانيا ومنها الى سائر أوربا . وكان آخر ظفر لهُ في سبتمبر سنة ١٩٣٨ عندما عقد اتفاق ميونخ

***

في مدينة جودسبرج حيث التقى تشمبرلين بهتلر ثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٨ وعد هتلر بأن تكون ارض السوديت آخر مطلب جغرافي لهُ في اوربا . ومع ذلك اكتسح بوهيميا ومورافيا في مارس ١٩٣٩ وضمها الى الريخ . وفرض حمايتهُ على سلوفاكيا . وفي الشهر نفسه بعث بانذار الى بولندة مطالباً باعادة دانتزج الى الريخ وبحقوق معينة في ما يعرف باسم الممر البولندي

كانت بريطانيا وفرنسا في خلال هذه الفترة قد ادركتا انهما خدعتا . كان تشمبرلين قد سلّم بمطالب هتلر في ميونخ لاعتقاد فريق كبير من الانكليز ان مطالبتهُ بارض السوديت قائمة على مبادىء لا ينكر اكثارها ولأن بريطانيا لم تكن متأهبة للحرب . ولكن الشعب البريطاني بدأ يدرك حقيقة مصنع النظام النازي في اوربا بعد اكتساح تشيكوسلوفاكيا وتقسيمها . فلما أتت بولندة الانذار الالماني اتجهت السياسة البريطانية اتجاهاً جديداً ومضت حكومة تشمبرلين مؤيدة من الشعب البريطاني في اقرار نظام التحشد الاجباري وانتدبت عن معارضة لا تقل عن البريطانية في اوربا الوسطى والشرقية فعقدت محالفة عسكرية مع بولندة وأعلنت حمايتها لسلانة ورومانيا واليونان وتركيا

ولكن روسيا السوفيتية كانت في منزلة حجر الصدّ في كتلة السلام التي اتجهت بريطانيا الى انشائها . وانقضت اشهر وحكومتا لندن وباريس تبذلان جهدهما لاشراك موسكو معهما في

محالفة كبيرة. وكانت سياسة روسيا السوفيتية بعد الحرب العالمية الاولى قد تقلبت وفقاً لمصالحها فالتزمت العزلة الباهرة اولاً وهاجمت عصبة الأمم متهمة إياها بأنها «عش» الرأسمالية، فلما نهض الحزب النازي على أساس مقاومته للشيوعية الى مقاعد الحكم في ألمانيا خرجت روسيا من عزلتها وانتظمت في عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ وعقدت في السنة التالية محالفتين عسكريتين مع تشكوسلوفاكيا وفرنسا. ولكنها ومت في السنتين التاليتين بمساعي بريطانيا وفرنسا الفاترة لكبح جماح هتلر، فلما عقد اتفاق ميونخ في سبتمبر ١٩٣٨ بغير ان يدعى ستالين او ممثلهُ الى حضوره بلغ رم روسيا حدود السخط على الدمقراطيين الغربيين. فلما بدأت المفاوضات في الصيف الماضي بين حكومتي لندن وباريس وحكومة موسكو اصطدمت بعقبات كثيرة لم يكن أقلها طلب روسيا الخاص بدول البلطيق مما أنتهُ الحكومتان الدمقراطيتان. ومنها امتناع بولندة عن التسليم باختراق الجيوش الروسية لأراضيها بغية مقاومة الاعتداء الالماني

وكان استدام مفاوضات موسكو بعقبات كبيرة فرصة سانحة لهر هتلر وفون ربنتروب فاغتنماها. وليس بخاف ان الرخسفهر كان منذ بدء الحكم النازي غير راض عن سياسة هتلر العنيفة ضد روسيا. وكان أقطابهُ يميلون الى التفاهم مع روسيا لسببين احدهما إزالة خطر الحرب في ميدانين، وثانياً الاعتماد على موارد روسيا الطبيعية للفوز بما يحتاج اليهِ المانيا من المأدات الصناعية. فلما رأى هتلر — وهو السياسي الثهاز لايقيد بخطة او دستور و يبدل الأصدقاء بدل السلطان — ما تمانيه الدولتان الغربيتان في مفاوضات موسكو ورأى ان الفرصة سانحة لحزمها هزيمة سياسية، انقلب على سياسة مقاومة الشيوعية الى الاتفاق مع أقطابها. وكذلك عرف العالم صباح ٢١ اغسطس ان هتلر اقدم بعد ارهاب العالم ست سنوات متوالية بشبح الشيوعية، على ضم ستالين بذراعيهِ

ومع ان هذا الاتفاق كان باعثاً على سخط اليابان، ايطاليا واسبانيا، فض انصار هتلر في المانيا نفسها، إلا انهُ كان كسباً وقتياً لا يجب انكارهُ لانهُ فاز بمحياط الشرقي للدولة لانشاء «كتلة السلام» ومهد لالمانيا نظرياً على الاقل الى الاعتماد على موارد روسيا الطبيعية. ومن المحتمل ان فون ربنتروب أقنع ستالين باصدار أمره الى وقف الدعاية الشيوعية الخفية في المانيا مقابل تأييد روسيا فاجتنبه من عقد هذا الميثاق لم يكن يسيراً لانهُ مكنها من الفوز بنصف بولندة واستئناف توسعها الشمالي. فاذا طالت الحرب في الغرب وانتهى ذلك إلى إنهاك المانيا وانتصار فرنسا تاح لستالين لتنظيم اوربا او جانب كبير منها على قواعد شيوعية

وقد جاء عقد هذا الميثاق نتيجة طبيعية للقواعد المتشابهة التي قامت عليها السوفيتية والنازية ورغبة الرخسفهر وعداء النظامين معاً للدمقراطية. ولا ريب في ان مستقبل أوربا يتوقف الى حد

بعيد على مدى تماون موسكو وبرلين ، وتأثير هذا التعاون ، او على احتمال اختلافهما في ما بعد على شرق أوربا

أن بريطانيا فأدركت حالاً ان الدفاع عن بولندة أشق من الدفاع عن الامبراطورية . ولكنها كانت قد قطعت عهداً لبولندة فليس في وسعها النكوص . ولذلك قبل اذا كان هتلر يطمع في دانزج فعليه ان يحارب في سبيلها . وبعد ما انتهت الحرب البولندية بخذلان بولندة في الميدان عاد هتلر الى خطبه المأثورة زاعماً انهُ لا يرى سبباً من أسباب الخصام بينهُ وبين دول غرب أوربا ، اذا شاءت ان تعقد معهُ صلحاً على أساس يقبله

ولكن الأسس التي تقوم عليها فلسفة التوسع الوطني الاشتراكي لا تدع مجالاً للثقة بصدق نية هتلر وصحبه . فروزنبرج يقول : ان السلام الجديد لا يستتب الا بسيف عنصر متفوق يعيد قوى العالم في سبيل حضارة أعلى من حضارته الحالية . وهتلر يقول ان الدولة التي تمنى وهي في دور الانحطاط بأجود عناصرها لا بدَّ ان تغدو يوماً ما سيدة الارض

شهد العالم قيام امبراطوريات عظيمة ولكننا لا نجد في جميع عصور التاريخ شعباً ينادي بتطبيق مبادىء أفضل في هدم الحضارة الغربية — اذا أتيح لها الغلب — من مبادىء النازية ، ولا قوة حربية معدة لفرض تلك المبادىء على الناس كقوة المانيا النازية . فمدار الحرب الدائرة الآن هو هذا — أتتفوق الفكرة الغربية في الحياة الدولية أم الفكرة النازية

٤ — مقدمات ونتائج

تسلم كثرة الشعب الالماني بالاشتراكية النازية لأنها لا ترى سبيلاً آخر تسلكه الآن ولكن الاقلية فقط تؤمن بمبادئها . فليس ثمة كاثوليكي صحيح العقيدة يستطيع ان يقبل فلسفتها . ومع ما اشتهر به الوثنيون الالمانيون من الخضوع للدولة يكثر بينهم من يجاري الكاثوليك . فتعاليم النازي لا تفوز بتأييد جميع الالمانيين الذين يؤمنون بالحضارة الغربية . ومع ذلك يسعى أقطاب الحركة النازية جهدهم بوسائل الجميع الوسائل التي اقرها علم النفس الحديث الى انتزاع الاحداث من البيت والكنيسة لتلقينهم إياها . وقد كان من نتائج الارهاب النازي ان فرَّ كثيرون من الزعماء الاحرار من المانيا ، فانتقل الآخرون . وكذلك يلوح انهُ قد يتاح لهذه الطائفة من الحكام نحو العالم الرجعية المسيحية من المانيا بالارهاب والدعاية

ومهما يكن من أمر فالنازية قاومت على الغلب الايديولوجية النازية على المانيا الآن هو اخلاق الدول الغربية في شهوتها الى مستوى عقائدها السياسية والاجتماعية . فالدول الديمقراطية الغربية اذا عنت عالمها للعدل الداخلي والخارجي ، ولكنها عنيت اولاً بمصالحها القديمة . وما اصيب

به الاقتصادي العالمي القائم على التبادل الحر اللازم لرخاء الدول المحرومة . . . . . أما اصيب به على الغالب على يد الديمقراطيات وجماعة الاحرار الذي يشددون النكير الآن على ما تتصف به الدكتاتوريات من تعصب ، تعذّر عليهم على ما يلوح التضحية اللازمة في سبيل تعزيز المبادىء التي يؤمنون بها . واذا فازت الدول الغربية في هذه الحرب فانها لا تستطيع ان تحقق الهدف الاعلى الذي تتجه اليه الاّ اذا عدّلت موقفها وخطتها تعديلاً اساسيًّا . فالنظام النازي في المانيا هو نتيجة لاخطاء الغرب . وهو النهاية المنطرفة للتعاليم القومية التي تسود غرب اوروبا وعالم يبعث الغرب انبعاثاً جديداً فقد يثبت لمؤرخ المستقبل ان الحركة النازية لم تكن الاّ ناحية واحدة فقط في انحلال الحكم الديمقراطي في كل دولة

معاهدة فرساي

وعلّ الهفوة الاولى التي ارتكبها الغرب بعد الهدنة كانت معاهدة فرساي . ولو كان غرض هذه المعاهدة تقليم اظافر الشعب الالماني لوجب ان تكون اشدّ مما كانت ولو اتيح لفرنسا تنفيذ خطتها بغير مقاومة بريطانيا والولايات المتحدة لكان المتعذر قيام الحركة النازية في المانيا . ولكن صلحاً شديداً من هذا القبيل حرّك استنكار جماعة الاحرار في الغرب لأنها كانت تعتقد ان الشعب الالماني لا يكون اشد عدواناً من غيره من الشعوب اذا اتيحت لهُ فرصة التمرّن في ظلال السلام . فجاءت معاهدة فرساي وسطاً بين الرأيين . فلا هي كانت شديدة فقدت المانيا بالقوة ولا خفيفة رضي منها غلاة الوطنيين من الالمان . وكان الرئيس ولسن يعلّق أمله على جامعة الأمم في ازالة ما تطرّق الى معاهدات الصلح من وجوه النقص والجور . فلما تنكرت الولايات المتحدة والرئيس ولسن لعصبة دفن هذا الامل . وكذلك ظلت المادة ١٩ من ميثاق العصبة وهي المادة التي نصت على تنقيح المعاهدات حرفاً ميتاً لم تعمد الجامعة الى تطبيقها مرة واحدة في خلال العشرين سنة من حياتها

واذا نظرنا الى الناحية السياسية من نقد المانيا لمعاهدة فرساي وجدنا ما يسوغه وقد شادت معاهدة فرساي بالمبادىء الأدبية العالية في البلاغات الدولية ولكنها لم تتح الفرصة لتطبيق هذه المبادىء او تجربتها . فالاحكام الادبية الصادرة فيها على المانيا من حيث تبعة الحرب والمستعمرات والشدة التي عوملت بها مشكلة التعويضات اتاحت لهتلر موضوعاً لاشد طلباته وأبعدها عن المعقول

وفي سنة ١٩٢٥ حاولت بريطانيا وفرنسا تنقيح ناحية من معاهدة فرساي بعقد معاهدة لوكارنو مع المانيا وعلى اثر عقدها انتظمت المانيا في جامعة الامم وقد كانت تلك الفترة التي

احكمت فيها أواصر التعاون بين بريان وشتريزمان أزهى فترات السلام بعد الحرب الماضية . ومع ذلك ظل القسم الخامس من معاهدة فرساي قائماً وهو الجزء الذي يفرض على المانيا نزع سلاحها. ولا يستبعد ان الجمهورية الالمانية كانت تميل الى التسليم ببقاء هذه القيود لو أن فرنسا وحلفاءها نزعت سلاحها وفقاً لروح ميثاق الجامعة . فلما قدم «ضمان السلامة» على نزع السلاح شرعت المانيا تطالب « بالمساواة » عن طريق التسلح . ولو ان الحلفاء قبلوا مبدأ المساواة عن طريق التسلح قبل فوات الوقت لمهد الطريق الى تنقيح المعاهدات تنقيحاً سلمياً ولظلت الجمهورية الالمانية قائمة . ولكن عند ما ذهب المستشار بروننغ الى جنيف في سنة ١٩٣٢ وناشد أعضاء الجامعة التسليم لالمانيا باشياء من هذا القبيل لم يجب طلبه . ولم تفز المانيا بالمساواة الا بعد قيام هتلر الذي مزق القسم الخامس من معاهدة فرساي — وهي مساواة يرتد اليها الجانب الاكبر من بواعث الحرب الثانية الآن

ونحن لا نريد ان نقول ان الحلفاء وقفوا دائماً موقفاً جامداً مما طالبت به المانيا . اذ لا ريب في انهم سلموا لها في بعض ما تطلب ولكن تسليمهم كان يجيء على الغالب بعد فوات الوقت فلم يكن في هذا التسليم فائدة تذكر . ففسر الالمان تسليم الحلفاء بعد المداورة والامتناع بأنه ضعف يجب ان يستغل ففوتت فرص ثمينة كان يجب ان تستغل لتعزيز أواصر التعاون والتفاهم

وكيف قلبت النظر في معاهدة فرساي فانك واجد ان أكبر هفواتها هي تقصيرها عن انشاء كتلة من الدول تحل محل امبراطورية النمسا والمجر . وعلى الرغم من ان تلك الامبراطورية استبدت بشعوبها غير الجرمانية استبداداً منكراً فليس ينكر احد انها ربطت بينهم جميعاً برابطة التجارة الحرة. فلما تفككت اوصالها تفرقت الامبراطورية اجزاء مستقلة او ضمت اجزاء منها الى دول قائمة . ومع ذلك كان في وسع مؤتمر الصلح ان يعترف باستقلال كل منها على ان يقوم بينها نظام للتعاون الاقتصادي والسياسي . ولكن المؤتمر لم يفعل . وكذلك قامت على انقاض امبراطورية آل هبسبرج دول هنغاريا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا رضمت اجزاء اخرى الى يوجوسلافيا ورومانيا. وكانت دول الاتفاق الصغير (تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا) تعتمد على تحالفها مع فرنسا لمقاومة ما يحتمل ان يقوم بينها وبين هنغاريا والمانيا من خلاف . نعم أن معاهدة سان جرمان (الحلفاء والنمسا) أوصت بانشاء نظام تفضيلي للضرائب الجمركية بين بعض دول الدانوب. ولكن اصرار الدول الكبرى — ومنها الولايات المتحدة الاميركية — على أن يشملها كل تخفيض يمنح لغيرها حال دون التقدم في هذه الناحية . وأذن يصح القول بأن الاخفاق في تنظيم هذه الرقعة من أوربا تنظيما اقتصادياً يقضي به العقل والمصلحة كان من أهم البواعث على انهيار النظام الدمقراطي فيها

فلما أقدم هتلر على احتلال منطقة الرين المجرَّدة من السلاح وتحصينها في مارس ١٩٣٦ قطع الصلة بين فرنسا وحلفائها في أوربا الوسطى . فقد كانت هذه الدول تعتمد على فرنسا في مساعدتها على المانيا اذا اقتضت الحال ذلك . وكانت فرنسا قادرة على ذلك عند ما كانت منطقة الرين مجرَّدة من السلاح وفقاً لمعاهدتي فرساي ولوكارنو ، لأنهُ كان في وسع جيشها ان يخترق المانيا ويشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني أيًّا كان وجيوش الاقاليم الصغيرة كانت كفيلة بمعالجة الباقي منهُ . فلما امر هتلر باحتلال هذه المنطقة وتحصينها اصبحت قدرة فرنسا على نجدة حلفائها امراً مشكوكاً فيه . فقدت أوربا الوسطى ترهب جانب جارتها الجرمانية الكبيرة ولا تعلم أين تلتفت. فايطاليا صديقة المانيا والعون الروسي يخشى بقدر ما يخشى العداء الالماني. وليس ثمة ريب في أن مؤتمر الصلح الذي يعقد بعد هذه الحرب يجب أن يعنى بانشاء نوع من الوحدة في بلدان الدانوب تمكنها من معالجة المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي تواجهها وتجعلها نقلاً ذا شأن في ميزان أوربا الوسطى

حبوط العقوبات

نصت المادة السادسة عشرة من ميثاق الجامعة على فرض العقوبات على كل دولة تقدم على العدوان . فلما أبت الولايات المتحدة الانتظام في الجامعة فقدت بريطانيا جانباً من حماستها لنظام لو طبق لوقع اكبر عبئه عليها . فخيط نظام العقوبات قبل تجربته . واذا كانت دول الحلفاء قد اخطأت في امتناعها عن ازالة بواعث شكوى المانيا في الوقت المناسب فانها اخطأت كذلك في احجامها عن معاقبة اعمال العدوان التي قامت بها الدول الدكتاتورية معاقبة حازمة

وقد جاء الاعتداء الاول على الحالة الراهنة التي اقرَّتها معاهدات الصلح والمعاهدات التي عقدت بعدها من جانب اليابان . وذلك بغزوها منشوريا في سنة ١٩٣١ ومع ان الولايات المتحدة الاميركية ليست عضواً في الجامعة الا انها تحركت للتعاون مع الجامعة في ردع اليابان متوسلة الى ذلك باشتراكها في معاهدة الدول التسع التي عقدت في وشنطن (١٩٢١ — ١٩٢٢) وضمنت وحدة الصين وسلامتها. ولكن وزارة الخارجية البريطانية لم تقدر على ما يلوح عزم الحكومة الاميركية وامتنعت عن الانسياق في سياسة لم تكن واثقة بان الولايات المتحدة الاميركية تثبت عليها ولا سيما ان انتخابات الرآسة كانت وشيكة ولا يعلم ما تكون سياسة الرئيس المنتخب . وقد كان القرار الذي اتخذتهُ الجامعة في يناير سنة ١٩٣٢ وسطاً فلم ترض به اليابان — والدليل على ذلك خروجها من الجامعة على أثر اعلان نتيجة الاقتراع — ولا أرضى المطالبين بتطبيق نظام العقوبات كاملاً . نعم ان الاعذار التي يعتذر بها كثيرة ، منها اشتداد الازمة الاقتصادية العالمية حينئذٍ مما يتعرض دون العقوبات الى نفاقها فيما إذا طبقت العقوبات الاقتصادية كاملة ، ومنها قوة اليابان

البحرية في الشرق الاقصى . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها ان دول الجامعة تفادت فرض العقوبات فكأنها سلّمت بالعدوان

ثم ان العقوبات جبنت في سنة ١٩٣٥ عندما فرضت على ايطاليا في الحرب الحبشية ونجتزيء بالاشارة الى ذلك محيلين القارىء على مقال نشرناه في مقتطف فبراير ١٩٣٧ صفحة ٢٢٧–٢٣٢ عنوانهُ «حبوط العقوبات» . ومن ثمة توالت الحوادث . ففي شهر مارس سنة ١٩٣٦ احتلّ هتلر منطقة الرين المجرّدة من السلاح . وفي يوليو من السنة نفسها تدخل هتلر وموسوليني في الحرب الاهلية الاسبانية مؤيدين للجنرال فرانكو . وعنيت بريطانيا وفرنسا بانشاء لجنة عدم التدخل فتعهد ممثلو الحكومات الاوربية بالامتناع عن اصدار الاسلحة الى الفريقين المتحاربين ولكن المانيا وايطاليا مضتا في شحنها الى فرانكو وروسيا في اصدارها الى الجمهوريين . فلما زحف هتلر على النمسا في مارس ١٩٣٨ لم يرفع اصبع لوقفهِ وكذلك انتهت هذه السياسة الى اتفاق ميونخ في سبتمبر ١٩٣٨ .

ولو ان رجال السياسة في لندن وباريس أيّدوا الجامعة تأييداً صحيحاً ولو ان بريطانيا على وجهٍ خاص قبلت قبل ثماني سنوات عند ما وقع الاعتداء الاول (منشوريا ١٩٣١) الالتزامات التي قبلت ان تأخذها على عاتقها في مارس ١٩٣٩ (محالفة بولندة وضمان رومانيا واليونان وتركيا ولو قرر ذلك بنظام فلانماش الاقتصادي العام[1] وتقبح ما يجب تنفيحهُ في المعاهدات القائمة ، فالغالب ان اوربا كانت نجت من الحرب الثانية الآن

وليس ثمة ريب ان احجام الدول الديمقراطية عن الاحتكام الى القوة كان سببهُ الأول ما يعرف بالنزعة السلمية في شعوبها . فويلات الحرب العالمية الاولى كانت قد تركت اثراً بليغاً في نفوس الناس فأقبل الرأي العام الديمقراطي على دعاية قوية واسعة النطاق لنزع السلاح وتحريم الحرب ، مع امتناع هذا الرأي العام نفسهِ عن الموافقة على الخطط السياسية التي تحقق النزع والتحريم بتخليف الحلفاء القائم بين الامم . فشعب الولايات المتحدة كان يرى انهُ ليس من مهمتهِ القيام بعمل حاسم عالمي وجاراهُ في ذلك الشعبان البريطاني والفرنسي . وهذه النزعة السلمية كانت مشتد هتلر في جميع اعمالهِ الدولية فكان يقدم عليها مقتنعاً بان الشعوب لا توافق على الحرب ، ثم بعد الاقدام على كل منها كان يعرض مشروعاً للسلام ليتذي هذه النزعة في صدور الناس ويشغلهم بمشروعهِ عن السخط والتبرم بعملهِ

اما البواعث التي حملت الطبقات الحاكمة في بريطانيا وفرنسا على الوقوف هذا الموقف فكانت تختلف عن النزعة السلمية التي كانت تحرك الجماهير . فكان ظن الحكام ومنّ وراءهم ان انشاء

(١) بحث الحالة الاقتصادية العالمية من حيث علاقتها بالمشكلات الدولية نظر خاص لم يتسع له هذا المقال

نظام دولي بالمعنى الصحيح يقتضي منهم ثمناً كبيراً ، وكان الرأي الغالب على دوائرهم انهُ قد يكون في وسعهم منع نشوب الحرب بالتسليم بأعمال محدودة تقوم بها المانيا وايطاليا واليابان ضد بعض الدول الصغيرة وبوجه خاص ضد روسيا . فاستغلال اليابان لموارد منشوريا يستغرق سنين وايطاليا مشغولة بالحبشة والمانيا بأوربة الوسطى وقد تشتبك في حرب مع روسيا . وهذه هي «سياسة القوة» سافرة الوجه ولكنها لم تنجح لأن الرأي العام في الدولتين الدمقراطيتين والولايات المتحد الاميركية استنكرها لبعدها عن كل مبدأ أدبي يحترمه ولان قابلية الدول الدكتاتورية اوهنت بالاكل فلم تقف عند حد معقول . ذلك ان هذه الدول لم تكن مهيأة باستغلال البلدان التي ضمتها وتنمية مواردها بل كان همها الاكبر الفوز بالسيطرة وانتزاع ما للدول الغربية من منزلة ونفوذ

الروح الدمقراطي

واذا بحثنا عن الباعث على عجز الدول الدمقراطية عن مواجهة المشكلات الدولية بما يجب من الحزم وجدناه في النضال الداخلي القائم في بعضها بين طبقاتها وأحزابها المختلفة . وقد شهد كل بلد منها سعياً من احزاب العمال والهيئات المتصلة بها لاصلاح حال العمال والفلاحين وغيرهم . وهذا سعيٌ نبيل يجب ان يفوز بتأييدها طبقات الاحرار اذا كان هذا لا يضعف الاركان التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الذي يؤمن به الاحرار . ولكن الغلوَّ في ما طلبتهُ بعض الهيئات الاشتراكية النزعة وضعف الاساليب التي أقرَّتها بعض الحكومات لتحقيق هذه الطلبات أفضيا الى إضعاف النظام الدمقراطي

ولا تموزنا الأمثلة لنسوقها على ان فريقاً من اصحاب المال وزعماء العمال نظروا نظرة ضيقة الى مصلحة طبقتهم فرفعوها فوق المصلحة العامة . فاذا كانت حركة العمال منحرفة الى الشيوعية — ولو كان ذلك الانحراف نظريًّا — فليس ثمة ريب في ان وحدة الدولة تهدَّد بالتصدُّع

وقد جاءت فترة بعد الحرب العالمية الماضية فقد فيها العمال والمشتغلون بشؤون الفكر كلَّ ثقة بالنظام الرأسمالي فاتجهوا الى روسيا السوفياتية وفاز الحزب الشيوعي الروسي بولاء هاتيك الجماعات في شتى البلدان . يقابل هذا انَّ انحراف هذه الجماعات الى روسيا ، وتفاقم الخطر الشيوعي ، دفعا المحافظين والطبقات المتوسطة في ايطاليا والمانيا واسبانيا الى تأييد الانقلابات الفاشية . وفي بريطانيا وفرنسا الى ضعف الحزم في مقاومة العدوان الفاشي

اما الاحرار فاستهوتهم دعوة روسيا الى انشاء كتل شعبية غرضها مقاومة الفاشية . فأنشئت الجبهان الشعبيتان في فرنسا واسبانيا وبذلت مساعٍ لانشاء جبهة من قبيلها في بريطانيا واميركة . ونحن اذا نظرنا الى حركة « الجبهة الشعبية » من ناحية المبدإ رأيناها محمودة

من مدّها ، لان الشيوعية بعيدة بعدَ الفاشية عن الدمقراطية . واذا نظرنا اليها من ناحية النتيجة العملية رأيناها وقد دفعت بالعناصر المحافظة الى معسكر الفاشيين

والواقع ان مبالغة المحافظين في خوفهم من الشيوعية وغلو الاحرار في حماستهم لها يدلان على ان الضعف الاساسي في النظام الدمقراطي هو فقد ثقة الدمقراطيين انفسهم به. وهذا يرتد الى ضعف المبادىء الفلسفية التي قامت عليها نظرية الحكم الدمقراطي

فالدمقراطية اصلاً وليدة الايمان بكرامة الانسان وقدرته على الاختيار بين عاملين على اساس ما فيهما من خير او شر . فرفعت الدمقراطية مبدأ الحرية ولكنها قيدته بمبدإ القصد . فالحرية في رأي الفلاسفة الدمقراطيين يجب أن تمارس بحيث تحقق للفرد اغراضاً أدبية اختارها اختياراً حراً لنفسه . وفي ذلك تعلم ان يحترم اختيار الغير وما يجب عليه نحوه وهذا أساسهُ التسامح واحترام الوعد

هذه المبادىء الخلقية الاجتماعية ثبت بما اضعف منزلتها في النفوس قبل ان يقتلها عاصف الانقلاب الدكتاتوري . ذلك بان احرار الذين يؤمنون بها استسلموا للنزعة الوطنية الضيقة وتأثروا بالمادية العلمية ومدارها أن الانسان ليس الا ورقة محمولة في إعصار التغير الكوني ، وبالمادية الاقتصادية التي ابتدعها ماركس وبالتعاليم النفسية الجبرية التي وضعها فرويد واتباعهُ وردوا بها اعمال الانسان الى نزعات في الغل الباطن قلما يستطيع الانسان ان يوجهها . وفي جميع هذه المذاهب شيء من الحقيقة ولكنها اذا قبلت على علاّتها فيها ولا ريب تضعف من منزلة الصور الادبية القديمة التي قامت عليها الدمقراطية لانهُ اذا كان الانسان آلة تحركها قوى عمياء فلماذا يتعيَّن عليه ان يناضل في سبيل حرية يتعذر عليها بحكم النواميس الكونية ان يحققها

ولكن الجنس البشري لا يسعه الاستسلام الى هذه النتيجة القاتمة . قد تمضي النزعة المادية في طريقها دهراً ولكنها تنتهي في آخر الامر الى رد فعل ، لانهُ اذا لم يبق من جماهير الناس الا آلات عمياء لا تتحمل تبعة ولا مسؤولية فالغالب انها تفرى بما في النظام الدكتاتوري من اوهام مدارها الفاء التبعة على كاهل زعيم فرد .. وتاريخ الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية شاهد على ان الجمعية البشرية لا تقوم على الفكر والمصلحة الاقتصادية وحدهما ، ولا بد لها اذا شاءت ان تذهب لمقاومة الشدائد ، من مبدإ ادبي يوحد بينها ويستجيب الى ما في طبيعة الانسان من وحي الروح

ونحن نرجو أن يكون من نتيجة هذه الحرب وانتصار الحلفاء فيها ، بث الحياة في الروح الدمقراطي واتاحة الفرصة ثانية في أقل من ربع قرن لانشاء نظام جديد تسوده المبادىء الادبية العليا . فاذا صحَّ ذلك فالحرب العالمية الثانية مهما تكن رزاياها لا تكون عبثاً [1]

(١) الاعتماد في هذا الفصل النفيس على المؤرخ الاميركي بيرل Buell في مجلة فورتشون Fortune